FTDES
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية
المرصد الاجتماعي التونسي

كراسات المنتدى عدد 4

في تدبير أزمة «كوفيد 19» في تونس

سياسات الدولة والفئات الأكثر تضرّرا

تنسيق: سفيان جاب الله

سبتمبر 2020

***

المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي **كراسات المنتدى**

***

حقوق التأليف محفوظة للمنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

الطباعة : المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية- سبتمبر 2020
ISSN : 2724-6833

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

المرصد الاجتماعي التونسي

كراسات المنتدى عدد 4

في تدبير أزمة «كوفيد 19» في تونس

سياسات الدولة والفئات الأكثر تضرُّرا

تنسيق: سفيان جاب الله

سبتمبر 2020

الإدارة والتحرير:
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية 47 شارع فرحات حشاد، 1001، تونس

المديـر المسؤول:
علاء الطـــالبي

أعضاء لجنة التحرير:
حياة عمامو، صلاح الدين بن فرج، رياض بن خليفة، نزار بن صالح،
ماهر حنين، سفيان جاب الله، مالك كفيف، محمد سليم بن يوسف

التدقيق اللغوي:
وليد فيّـــــالة

صورة الغـــلاف:
حسام سعـــاف

طبـــــــاعة:
الطباعة المتضامنة

المحتوى

سفيان جاب الله

تقديم عام للكُرّاس 07

المحور الأولّ: في القراءات المُمكنة لأداء الدولة زمن الجائحة..... 22

منـــــال دربالي

لمحة تاريخية عن الأوبئة في تونس. 23

حسـام سعّــاف

هوموستازية المُجتمع المختل أو في تضاعف إقصاء الهامش زمن الحدث الوبائي: قراءة أنثروبولوجية. 36

آية بوصحيــح

تعميق اللامساواة الاقتصادية والاجتماعية بين الفئات المجتمعية في زمن الوباء: (مقاربة قانونية). 49

يوسف موسى

الأداء الخطابي لرئيس الجمهورية في السياق الوبائي: كيف خاطب الفئات الأكثر تضررا؟.. 60

المحور الثاني: بورتريه الفئات السوسيو-مهنيّة الأكثر تضرُّرًا من الحجر الصحّي..... 76

رضـــا كــارم

النّساء العاملات بحقول الاستلاب زمن الكورونا: ذكوريّة الفضاء، والهيمنة المزدوجة. 77

هيثم مدوري

عمّال البناء: الواقع، الحَجْر والإجراءات. قراءة في آثار الجائحة وتفكيك الأزمة. 94

أمل الهـــازل

عاملات النظافة في المُستشفيات زمن الجائحة: الفاعلات في المعركة من أجل الحياة..... 111

منتصر النغموشي

بورتريهات عاملي المقاهي والحانات في زمن الكورونا: من أجل رسم صورة للهشاشة الاجتماعية..... 126

فهمـــي البلطـي

طبيب في مواجهة الكوفيد 19: كيف عاش الأطبّاء الموجة الأولى للوباء؟. 145

محمد سليم بن يوسف

أجراء القطاع الخاص والمسألة الاجتماعية في فترة الحجر الصحي: مجالات الفعل الجماعي والتسييس.. 163

المحور الثالث: في رصد تحولّ/تغيّر كميّ ونوعي لظواهر اجتماعيّة إبان الحجر الصحّي 180

خـــالد طبـــابي

ديناميكيات الهجرة غير النظامية في تونس: محاولة في قراءة المشهد الهجري زمن الوباء.... 181

حـــازم شيخاوي

في فهم العنف المسلط على النساء داخل الفضاءات زمن الكورونا.. 202

أحمد الســـاسي

كيف عاشت الأحياء الشعبيّة جائحة الكوفيد 19؟ الكبّاريّة نموذجا..... 214

المحور الاول:

في القراءات المُمكنة لأداء الدولة زمن الجائحة

هوموستازية المُجتمع المختل أو في تضاعف إقصـاء الهامش زمن الحدث الوبائي؛ قراءة أنثروبولوجية.

حسام سعاف

تلخيص

تتشكل كل المجتمعات البشرية من مجموعة هرميات اجتماعية، اقتصادية وثقافية، تحتوي كل منها على مركز وهامش ما، أي على أنماط مختلفة من الاندماج في النسق المجتمعي ككل. اليوم في تونس ومع كل ما سببته الجائحة التاجية من تغير جذري في السلوك اليومي لمختلف فئات المجتمع، بان بشكل جلي هذا الاختلاف في درجات الاندماج من خلال مختلف الرهانات التي تطلب على الفئات الهشة والهامشية مواجهتها. يقدم هذا المقال صورة عامة لبعض خصائص تشكل المجتمع البشري عامة وأثر ذلك على الفئات الهامشية خصوصا في فترات الاضطراب المحيطي، أي تلك اللحظات التي يواجه فيها المجتمع تحديات جدية تفرض عليه تعاونا شاملا بين كل الفئات لحلها.

Abstract

All human societies are composed of social, economic and cultural pyramides, each one contains a center and a certain margin meaning following different patterns of integration in the sociatal pattern as a whole. Today in Tunisia and despite all the paradigm shifts in daily behaviour of social classes caused by the pandemic. In a nutshell, this difference in degrees of integration through different challenges that these vulnerable and marganalized categories of the society go through. This article presents a general overview describing some of the characteristics that compose human kind, and their effects in marginalized catehoried especially during phases of environmental disfunctions, namely these moments where society faces serious challenges that impose total cooperation between all categories.

وجدت الطواعين فالعالم بقدر وجود الحروب. ولكن حين تأتي هذه الاخيرة من جديد فإنهـــا تجد النـــاس معدمين في كل الحـالات.

"ألبار كامو ،الطاعون"

مقدمة

لم يكن الأكثر تشاؤما من بين أصدقائي قادرا على تخيل أننا سنختبر جائحة عالمية أول هذه السنة. ترتبط هذه الأحداث، عند مُعظمنا، بمُخيلتنا السينمائية أو الفنتازيا التي تعرض نهاية العالم بطريقة مشهدية. وقد صارت بالفعل هذه المُتخيلات رائجة في عصرنا، وسهلت الاستحضار، كما يؤكد "مارك فيشر"، حين يُقرّ أن" تخيل نهاية العالم أسهل من تخيل نهاية الرأسمالية"[1]. ورغم أن الحجر الصحي بدا أوّل الأمر استتباعا منطقيا لمُتطلبات التوقي من الجائحة، إلا أنه كان مرفوقا بشيء من الغرابة التي جعلت فهمه عسيرا. هنا تكمن المُفارقة التي عاشها جيلي؛ إذ تأكدنا، رغم ألفتنا بمنتوجات ثقافية تصور نهاية العالم، أن برغسون كان على صواب حين أعلن بأن الواقعي أكثر مُفاجأةً من الخيالي، حين مُعاينته عن قرب.[2]

كنت كالجميع، أتابع ما يحدث بهوس مُتصاعد، خصوصا خلال الأسبوعين الأولين. لا يُمكن إنكار أن الإنسان، مهما كانت صفته وتجذّره السياقي، غير قادر على تجنب الحاجة الذهنية المُلحة لفهم ما يحدث حوله، خصوصا إذا تبين له، ولو حدسيا، أنّ أمرا مُريبا قيد الوقوع. لكن، وبعد فترة قصيرة، وخصوصا بعد مُشاهدة فيديو[3] الفيزيائي الفرنسي أوريليا بارو (A. Barau) الذي أعتبره أحد اللحظات الفارقة التي أحدثت تغيرا مُهما في الطريقة التي صرت أتمثل من خلالها مجريات الأحداث، بدأت بتفحص مشروعية الأفق السلوكي للمُقدمات التي تدفعني كبشري، وتدفع البقية مثلي في مثل هذه الأوضاع. حملتني هذه الوقفة إلى تحويل إطار اختباري لهذا الحدث من خلال تنزيل تجربتي الفينومينولوجية أولا في إطار تجربتي كتونسي، المُتجذرة في سياق جغرافي، اجتماعي، سياسي، ديمغرافي واقتصادي مُعين، ثم في إطار رهانات طالب أنثروبولوجيا، يحاول فهم هذه التجربة الإنسانية العينية في كليتها، وبجميع أبعادها. قد يبدو هذا الهدف طموحا جدا. وهذا مُصيب بلا ريب. حيث يتطلب عمل مُماثل سنوات بحث ما بعديا، وتعاونا يدمج كل الاختصاصات المعنية؛ لتحصيل المُعطيات الميدانية أساسا، وتأليفها ثانيا. ولكن، مسار الألف ميل يبدأ بخطوة.

[1] Fisher (Mark),. Capitalist Realism: Is There No Alternative? U,K, Zero Books,2009. P81.

[2] Bergson (Henri), La pensée et le mouvant, « Le possible et le réel » (Essai publié dans la revue suédoise Nordisk Tidskrift). 1930.P104.

[3] https://www.youtube.com/watch?v=kWYn5isgZ8M&t=61s نشر الفيديو في 7 افريل 2020 و عاينته في 8 افريل 2020.

على هذا الأساس، تكون الكتابة في إطار هذا الكُرّاس واحدة من تلك الخطوات. حيث يطمح هذا الكُرّاس أولا إلى إلقاء الضوء على الوضعية الاقتصادية للهامش الاجتماعي التونسي خلال مدّة الحجر الصحي، ثم يرغب في توفير الفضاء للباحثين الشباب لتقديم رؤاهم بخصوص السياق العام التونسي من خلال تصوراتهم في هذا الخصوص.

وعلى هذا، سأقترح عليكم هذا المقال الذي يُكثف ملاحظاتي الأولية ومُطالعاتي خلال الفترة السابقة، والذي يعكس كذلك تصورا ومشروعا بحثيا قيد التشكل في ذهني منذ فترة سابقة. هذا المقال ليس بالمقال العلمي التقليدي، ولا يأخذ في الحسبان نفس رهانات الصرامة المنهجية المعتادة، ولكنه في نفس الوقت، يطمح أن يكون قراءة أولية قادرة على توفير الحد الأدنى من الفهم لبعض مُكونات هذه التجربة الاجتماعية الاستثنائية. على هذا أود في هذا المقال العودة إلى الآليات التي اشتغلت بها ما يمكن تسميته أدفاق توزيع الطاقة داخل نسق ديناميكي خلال فترة الجائحة التاجية في تونس. والطريقة التي تدبرت بها الدولة، باعتبارها المُسيطر الإجرائي والشرعي الأساسي، على هذه الأدفاق.

مدخل منهجي.

نظرا للسياق الحالي، وكما ذكرت بدايةً، فإن المقال لا يعتمد على مُعطيات مُحصّلة بالرجوع إلى الوسائل المنهجية المُعتادة. ولكن، ومن خلال القراءة الأنثروبولوجية والجهاز المفهومي اللذيْن أعتمدهما، فإن تبرير جدية المقال رغم غياب المُعطيات الميدانية المباشرة تظل مُمكنة؛ أولا من خلال التمييز بين الإثنوغرافية والأنثروبولوجيا. ثم، ونظرا لأن القراءة التي أقدّمها ذات طموح ماكرو-اجتماعي، تخص وضعية الفئات الهامشية عامة- باعتبار أنها تتشارك سياقات بنيوية مُشابهة- فإن المُعطيات المُتاحة، من خلال المقالات، الأخبار وكل المصادر المشابهة، كافية لهذا الغرض.

الأنثروبولوجيا ليست الإثنوغرافيا.

تُستعمل عادة الأنثروبولوجيا والإيثنوغرافيا كمصطلحات بديلة لبعضها البعض. وفي ذلك بعض الخلط الذي يجب حلّه مُنذ البدايةً. يُعرف تيم انغولد (Tim ingold) الاثنوغرافية باعتبارها مُقاربة منهجية ميدانية، تهدف إلى وصف أنماط الحياة اليومية لمجموعة بشرية ما، في كليتها وشموليتها[4]. طوّرها بدايةً الأنثروبولوجيون، على رأسهم مالينوفسكي، لدراسة المُجتمعات المعزولة والبعيدة، التي كانت تُصنّف على أنها "بدائية" أو "همجية". وتعتبر المُلاحظة بالمُشاركة أحد أهم المناهج التي تستعمل الاثنوغرافية. تبنّت عدّة اختصاصات اخرى، على رأسها السوسيولوجية النوعية، المُقاربة المنهجية واستعملتها كلّما أرادت تحصيل معرفة ميدانية نوعية مُعمّقة حول

[4] Ingold (Tim) . "Anthropology is not Ethnography". Proceedings of the British Academy 2008. 69-92. P1.

المجموعة البشرية المَدروسة. في المُقابل، يُعرّف انغولد الأنثروبولوجية بأنها دراسة عامة مُقارنة ونقدية، تهدف إلى فهم الإنسان والعالم الذي يعيشه[5]. أمّا موريس بلوخ(Maurice Bloch) وريتا استوتي(Rita Astuti)، فيعرّفانها على أنّها الإطار المعرفي الذي يطمح إلى التنظير حول النوع الإنساني في عموميته[6]؛ أي صياغة نظرية شاملة حول الإنسان المُنفتح على بيولوجيته، سيكولوجيته، مُجتمعه وثقافته بجميع أبعادها.

تُعتمد الأعمال الاثنوغرافية عادّة كأسس للقراءات الأنثروبولوجية، ولكن لا يُشترط منهجيا أن تكون أولا؛ مُحصّلة من قبل الأنثروبولوجي نفسه، في كل أعماله. ثمّ، ثانيا، يُمكن للأنثروبولوجي أن يعود إلى مُعطيات مُحصّلة في عدّة فضاءات معرفية أخرى، كسيكولوجيا، البيولوجيا، علم السلوك، الاقتصاد.. إلخ. لتشكيل تصور شامل حول الظاهرة المعنية والمرغوب دراستها.

على ذلك، يُقصد بالقراءة الأنثروبولوجية في هذا السياق، تنزيل المُوضوع المُراد دراسته في إطار معرفي يطمح لتقديم بعض الملاحظات العامة التي تخص السلوك الإنساني، بجميع مُقدماته البيولوجية، الاجتماعية، الثقافية الخ، انطلاقا من سياق التجربة التونسية زمن الجائحة التاجية، ووضعها في سياقها العالمي. فعلى أهمية البُحوث الميدانية، التي تلامس المُعاش اليومي الفعلي، فإنّ الطموح النظري للأنثروبولوجيا يتعلق بإدراك بنية التعقيد النسقي في كل الظواهر البشرية، انطلاقا من خصوصياتها، وتحققها في مختلف الوضعيات من أجل فهم أفق الممكن البشري؛ وفهم الأسس التي يتشكل في حدودها. وقد صار الأمر أكثر إلحاحا في زماننا هذا بعد أن بلغت النسبوية المعرفية- في شكلها المابعد حداثي-درجة من العجز النظري، وصارت غير قادرة كنموذج معرفي على توليد أفكار نقدية جذرية، في ظرف صار فيه مصير الوجود الإنساني على المحك.

السياق العالمي للجائحة التاجية.

في مقال نشر في فيلوماغ، ترجمته في جريدة المرسل بعنوان " نفتقر إلى المخيال الكافي لفهم ما يحدث لنا"[7]، قدم الأنثروبولوجي الفرنسي فريديريك كيك (Frederic keck) تصورا مفصلا عن السياق العالمي الذي مهّد لظهور أنماط جديدة من الفيروسات التاجية. حيث أعاد هذه الحال إلى النِّقَاط التالية. أولا الترابط الاقتصادي في إطار عولمة عملية الإنتاج وما يعنيه هذا من تمدد جغرافي للمركبات الصناعية على حساب المساحات الخضراء والغابات عامة وكل الأنساق الأيكولوجية التي تسكنها. ثانيا، وعلى هذا الأساس، فإن التقاء البشر، والحيوانات التي يستعملها في حياته مع الحيوانات البرية ضاعف فرصة انتقال الفيروسات التي تسكنها إلى محيط الإنسان وضاعف أيضا

[5] Ibid.

[6] Astuti (Rita)& Bloch (Maurice). "Anthropologists as Cognitive Scientists". Topics in Cognitive Science.2012 4, 453-461.P1.

[7] فريديريك كيك (21-مارس-2020)، ترجمة حسام الدين سعاف، موقع المرسل. لا نملك المخيال الكافي لفهم ما يحدث لنا.

إمكانية ظهور الأوبئة لعدم وجود أي مقاومة ما قبلية داخل الجهاز المناعي البشري وما يتطلبه هذا الأخير من وقت لتشكيل مناعة ضد فيروس غريب. وقد بين كيك بالفعل أن كلا من تايوان سنغافورة والصين، أو ما يسميه "مراصد الأوبئة"، كانت على علم بهذه الإمكانية منذ مدة طويلة، على الأقل مباشرة بعد جائحة الالتهاب الرئوي الحاد (سارس) سنة 2003. في المقابل يبيّن كيك أن المركز التقليدي للعالم، أي المتوسط والأطلسي، لا يملك المخيلة المناسبة للتعامل مع هكذا وضعيات، أي يفتقد لمخيلة جماعية مُؤسسة تستطيع استيعاب التحدي المطروح بسبب الجوائح، مع أنّ الأوربيين مثلا يمتلكون تاريخ جوائح مهمة، آخرها هو الإنفلونزا الإسبانية. وسبب ذلك يعود لإشكال ثقافي ومجتمعي. أوّلا فإن التنظيم الإداري النازع للامركزية يعيق الفعل الحاسم في ظل أوضاع مماثلة. استقالة الدولة من الفضاء العام والتفويت في مواردها وضعها، في أوروبا مثلا، في بداية الأزمة في إشكالات جدية وعجز فعلي عن اتخاذ القرارات اللازمة، عكس الدولة الصينية. فعلى الرغم من الأسبوعين الأولين، نجحت الصين في استيعاب ووهان وتطويقها للحد من انتشار الفيروس. حيث يبين كيك أن الحاجة الوظيفية لمركزة القرار في هذه الوضعيات هو ما يمكّن المجتمعات من تجاوز خطر بهذا الحجم. ثانيا، يتأتى الإشكال الحالي للوضعية البشرية في علاقتها بالطبيعة عامة من فقدانها للمخيلة الكافية لفهم الطبيعة الثقافية لعلاقتها معها. حيث تشكل الفكر الأوروبي الحديث بناءً على مسلمة أن الطبيعة امتداد مُفارق للبشر وقابل للاستعمال الأداتي إلى ما لانهاية. هذه الفكرة شكلت المقدمة الأنطولوجية للفكر الحديث الذي يحرك الاقتصاد العالمي الحالي في شكله الرأسمالي[8]. مثلت هذا الرؤية الثقافية الشكل الأساسي للتنظيم الاجتماعي للحقبة الزمنية التي نسميها العصر الأنثروبوسيني " anthropocene"؛ حيث صار خلالها الرهان الأيكولوجي أحد أهم الرهانات المُحيطية التي تواجه المجتمع البشري. أي أن النسق الأيكولوجي "ecosystem" صار أكثر ظهورا[9] ومحددا للسلوك اليومي للبشر، وذلك نتيجة تصاعد منسوب الانثروبيا "Entropy"[10] الذي أنتجته الهوميوديناميكة البشرية منذ الثورة الصناعية إلى اليوم. وتأتي الجائحة التاجية، التي يعيش العالم على وقعها الآن، في هذا السياق المطبوع بتغيرات أيكولوجية جذرية تُهدد جوهريا أسس الحياة

[8] Descola (Philippe). Par-delà nature et culture. Folio.2015.P16-17.

[9] مفهوم الظهور عند هيدغار يحيل على التجربة الفينومينولجية للأفراد، الى التجربة المعاشة خاصتهم وعلى عالمهم الخاص الذي يتشكل من خلال مقدماتهم وتجاربهم السابقة التي تصنع بدورها عالمهم المعنوي والقيمي. لا تظهر عناصر المحيط كليا للمجتمع، ولا لأنساقه الثانوية كليا. بل يتحدد مدى ظهورها أولا بمكانتها في السردية والنسق الرمزي الذي تتبناه مجموعة بشرية ما. مثلا تظهر الطبيعة، بالمعنى الايكولوجي، بصفة أساسية لدى قبائل الاشوار الامازونية التي اشتغل عليها فيليب ديسكولا وتعتبر امتدادا تلقائيا للحياة الاجتماعية والإنسانية، في حين أنها- الطبيعة- لدى الغربيين امتدت ماديا يمكن الفعل فيه وعليه بطريقة أداتية. ثم ثانيا، في مدى استعجاليته، أي كونه يفرض نفسه من الخارج إذا صارت اضطرابات مُحيطية تُحدث اضطرابا على العالم المعاش وتغير الهرمية التفاضلية للمجموعة البشرية المعنية.

[10] يمكن فهم الانثروبيا بمعنيين. المعنى الأول يخص صفتها كمقياس لمدى عشوائية نسق ما. اما المعنى الثاني، والذي استعمله هنا، فيخص الفوضى واللانظام اللذين ينتجهما تفاعل نسق مع المحيط، في داخله وخارجه. كل نسق يفترض أن يحارب الانثروبيا داخله لنها تدفعها الى التحلل والتفكك. ولكن بلغ مستوى الانثروبيا التي انتجها البشر مرحلة .يعتبر بيرنار ستيغلر انها مرحلة حاسمة في تاريخ البشرية. يمكن الاطلاع على " The Neganthropocene" لنفس الكاتب.

البشرية على الأرض[11]. وقد بين بحث منشور في مجلّة "Nature" أنّ الجوائح ستكون أحد أهم الصفات التي تميز هذه التغيرات الأيكولوجية على المستوى العالمي.[12]

نسقية الهامش التونسي أو في البنية العامة للنظام الاقتصادي.

المجتمع التونسي كنسق ديناميكي.

يمتلك كل نسق مجتمعي تاريخا ما، ينشأ عن العملية الهوموستازية الخاصة به. والهوموستازية" homeostasis[13]" مفهوم بيولوجي أساسا، طوره والتر كانون "Walter Cannon" من أجل فهم العملية الفيزيولوجية التي يقوم بها الجسد من أجل إعادة إنتاج نفسه وفق متطلباته الداخلية وبالرجوع الى بنية تشريحية معينة يُرغب في المحافظة عليها. تم استعمال هذا المفهوم لإدراك العملية المعقدة التي يقوم بها نسق ما- فيزيائي، بيولوجي، اجتماعي الخ، خلال عملية إنتاج نفسه. على ذلك، يكون النسق الاجتماعي كغيره، راغبا بنيويا في إعادة انتاج نفسه والمحافظة على هيئته، عن طريق مجموعة من مؤسسات التنشئة الهيمنة والضبط. ولكن نظرا للتغير الدائم الذي يطبع المحيط نفسه، والتغيرات الطفيفة المتراكمة التي تنشأ بناءً على ذلك دخل المجتمع، فإن عملية الهوميوستازيا تدفع لنشوء اتجاهات متمايزة من التغيرات المختلفة السرعات داخل النسق. ويُقصد بالمحيط كل شي يشكل فضاء النسق، من جغرافية، فضاء أيكولوجي، أنساق اجتماعية أخرى الخ. إذا ينشأ خلال عملية الهوميوستازيا المتواصلة التي يقوم بها المجتمع مع محيطه هذا أشكال مختلفة من البنى الاجتماعية الاقتصادية والثقافية الخ؛ التي تتولد بعضها من بعض، وتتشكل في حدود الممكن الذي يسمح به التفاعل بينها.

انطلاقا من هذا التأطير، يمكن أن نعتبر تاريخ المجتمع التونسي، أي نمط تشكله الداخلي، تفاعلا متواصلا بين أنساق متعددة، ثقافية اجتماعية مُحيطية اقتصادية وغيرها. حتى أن الهادي التيمومي يرجع بعضها إلى الفترة الفينيقية[14]. يمكننا إعادة جزء كبير من مُؤسسات الفضاء العام، كالبنية الإدارية، ثقافة الطبقة الوسطى أو مؤسسة الزواج، إلى دولة الاستقلال والتغيرات الثقافية التي طبعة تلك الفترة. ولكن لا تُؤطر هذه الأخيرة كل تفاعلات المجتمع التونسي. حيث أن مؤسسات معيارية، لغوية وقرابية ما-قبل الاستقلال لا تزال تعطي الأسس الأنثروبولوجية لنمط حياة جزء كبير من المجتمع التونسي. تمثل مُؤسسات ما-قبل الاستقلال الفضاء الثقافي لجزء كبير من الهامش الاجتماعي والاقتصادي التونسي. حيث تترابط الأحياء الشعبية والمناطق الداخلية عادة مع هذه

[11] IPCC report puts global warming crisis in Anthropocene framework (2018).
[12] Kate E. Jones, Nikkita G. Patel, Marc A. Levy, Adam Storeygard, Deborah Balk, John L. Gittleman & Peter Daszak (2008). Global trends in emerging infectious diseases.
[13] Cannon (Walter).The Wisdom of the Body. W. W. Norton and Company, Inc.; Rev. and Enl. Ed edition (April 17, 1963) P25
[14] التيمومي (الهادي). كيف صار التونسيون تونسيين. دار محمد علي الحامي.2015.

المؤسسات الاجتماعية في تونس بشكل كبير. إذ أخذنا مثلا الأحياء الشعبية بتونس العاصمة كحي هلال أو حي التضامن، يمكن أن نلاحظ أن هذه الفضاءات السكنية هي امتدادا ثقافي واجتماعي للمناطق الداخلية التونسية. يمكن من خلال مقارنة خريطة اقتصادية اجتماعية مع الخريطة الثقافية أن نتبين التقاطع والترابط بين المجالين بكل وضوح.

على هذا الأساس، ورغم بعض التغيرات المجالية، فالهامش التونسي، اقتصاديا، اجتماعيا وثقافيا هو جزء بنيوي داخل النسق المجتمع التونسي، يُعاد إنتاجه هيكليا نظرا للطبيعة الداخلية التفاعلية بين كل مجالات والأنساق الفرعية له. أي أن جزءا من المجتمع التونسي يُمنع آليا من الوصول إلى الموارد العامة الثقافية والاقتصادية التي تتشكل داخل الفضاء النسقي التونسي.

أدفاق الطاقة داخل النسق التونسي.

تمثل أدفاق توزيع الطاقة داخل كل نسق إحدى أهم الأنساق الفرعية"Subsystem" التي تخصه[15]. والأدفاق ليست بنية تحتية فقط كطرق التوزيع أو المغازات والبنوك وما إليه، بل هي بالإضافة إلى ذلك مجموعة مؤسسات مجتمعية وتصورات ثقافية شاملة تتشكل من خلال تفاعل الأنشطة الإنتاجية، المعاير التي تحددها، أشكال معقدة من التصورات الرمزية والثقافية التي تعطي معنى للفعل والتجربة الفينومينولوجية للأفراد من ناحية وتبرر الاختلاف النوعي والكمي لهذه الأدفاق وارتباطها بمختلف الفئات المكونة للمجتمع. يمكن الإقرار بأنه على اختلاف إمكان تشكّلات أدفاق توزيع الطاقة نتيجة التجارب الهوميوستازية الاجتماعية المتعددة، فإن المُعطى الثابت هو وجود نزعة تلقائية لتشكّل أنماط متمايزة وهرمية من الترابط والاندماج بين مختلف فئات المجتمع مع هذه الأدفاق؛ ما ينتج عنه تباعا أنماطا حياتية[16] متخالفة " différenciées "، باعتبار أن هذا التمايز وهرميته يدفع إلى تشكل مُحيطات فرعية متخالفة "Subeniverement"[17] تضم وتؤطر تجارب فئات بشرية، في نفس النسق المجتمعي الكلي.

تونس كذلك، كغيرها من الأنساق الاجتماعية لدول العالم، تمتاز باحتوائها لعدّة أنساق فرعية منظمة هرميا وتعكس أنماطا حياتية مختلفة. بناءً عن بعض المعطيات الكمية، التي تجدون تصورا مفصلا عنها في تقرير أجراه عزام محمود في إطار عمل بحثي قام به المنتدى في هذا الإطار، فإننا يمكن أن نقسّم الأنساق الفرعية

[15] Luhmann (Niklas). theory of society vol1. Stanford University Press; 1 edition. 2012. P41

[16] يعرف كليفورد غيرتز الثقافة بأنها نمط حياة"a way of life". أي طريقة نسقية مترابطة من القيم والممارسات والتصورات التي تصنع تجربة بشرية ما.

[17] تعتبر المحيطات الفرعية تمايزات ثانوية تتشكل في نفس المحيط الأساسي ولكنها تسمح بظهور أنماط حياتية مختلفة. مثلا يعتبر الشاطئ محيطا أساسيا، لكن الشاطئ الصخري يسمح بتشكل حياة معينة بين الشاطئ الرملي يسمح بظهور أخرى. بالنسبة للمجتمعات البشرية، فإن الاختلافات الحضارية تمثل أساسا هذا التمايز المحيط الذي تنشأ فيه مختلف الأنماط الحياتية.

كالتالي.

-نجد أولا ترابطا أكثر كثافةً نوعيا وكميا بين أدفاق توزيع الطاقة والمراكز الحضرية الكبيرة كالعاصمة، سوسة، صفاقس الخ، التي تمثل تقليديا الشريط الساحلي للبلاد التونسية، أكثر من مدن" الداخل" كسيدي بوزيد، قفصة ...

-ثانيا، في هذه المراكز الحضرية نفسها، على اختلافها، نجد وحدات مُحيطية فرعية مختلفة، تمثل أحياء متمايزة نوعيا وكميا بعضها عن بعض. حيت يتعايش حي "كالكازمات" والخزامة في مدينة سوسة معا .

-ثم، في نفس الأحياء نفسها، نجد تمايزا وهرمية ما، خصوصا في الأحياء الشعبية والمناطق الريفية، مُؤسسا على الفارق الجندري .

تحيل هذه الهرميات على أشكال مختلفة من توزيع فئات المُجتمع داخل بنية النسق المجتمعي الكلي. وهذا ما يدفع تلك الأنساق الفرعية إلى تطوير قدرات معينة على المقاومة ومعالجة اضطرابات المحيط والتعامل معه.

ولكن، تنزع هذه الفروقات إلى التباعد والاختلاف أكثر فأكثر بفعل مبدأ التجاوب الإيجابي "positive feedback"[18]. حيث يتبين فعليا هذا التباعد من خلال عدة دراسات اقتصادية، على رأسها أعمال توما بيكيتي، التي تبرهن بوضوح التباعد المتسارع بين الفئة القليلة التي تملك الثروة وبين بقية متساكني الكرة الأرضية. حتى أن بعض التقارير تبين أن 1% من أغنياء العالم يملكون أكثر من نصف ثروة الكرة الأرضية[19]. ليس اعتباطيا إذن أن يصير موضوع إعادة توزيع الثروة حاليا أحد أهم الرهانات العالمية. إذ ضاعف مبدأ التجاوب الإيجابي الهوة في توزيع الطاقة داخل المجتمع البشري بدرجة تذكّر بالتفاوتات الضخمة قبل الحرب العالمية الثانية، أولا بين البورجوازيات الأوروبية والعمال، ثم بين الغرب والجنوب.

الجائحة كاضطراب جذري للمحيط.

يتشكل محيط النسق الاجتماعي من عدّة مستويات، يمكن أن يحدث المساس بإحداها اضطرابا داخل البنية الداخلية. والاضطراب المحيطي هو سلسلة من التغيرات المفاجئة التي تحدث في مستوى الترابط البنيوي بين المحيط والنسق وما ينتج عنه من اختلال اشتغاله. الحد الهووي مثلا،

[18] يمثل مفهوم التجاوب "feedback" أحد اهم المفاهيم في العلوم السيبرنيتيكة. وهي العلوم التي تدرس الكيفية التي يعدل بها النسق سلوكه نحو غاية ما. اما التجاوب الإيجابي فينشأ كلما كان سلوك النسق مناسبا وموافقا لغايته، فيدفعه للمواصلة في هذا الاتجاه. اما التجاوب السلبي فهو تجاوب تعديلي، يرغب في توجه النسق نحو اتجاه آخر، أكثر تماشيا مع غاية النسق.

[19] Credit Suisse report. (2019).

كما نلاحظ اليوم بسبب صعود الخطاب الشعبوي، أصبح يمثل دافعا لاضطراب المُجتمعات داخليا؛ أي أن ذلك مسّ من تفاعل الأفراد المنتمين لأنساق اجتماعية وثقافية مختلفة، وغير من منحى بنية سلوكهم وتصوراتهم الذهنية، باعتبار أن المعايير الهووية صارت أساسية في تصنيف وتنظيم تجربتهم الإدراكية[20] ، وما يعنيه ذلك من إمكانات للتضاد والتصادم داخل نفس المجتمع.

يُواجه كل نسق اجتماعي عادة درجات مختلفة من الاضطرابات المحيطية، وقد جعله ذلك يطور على طول تاريخه استراتيجيات مختلفة لمواجهتها وتعديلها نسبيا. ولكن، وباعتبار أن المجتمع نفسه يتشكل من أنساق فرعية متعددة، تترابط بتمايز مع ادفاق توزيع الطاقة داخله، كما تمت الإشارة إليه، وما يعنيه ذلك من القدرة على تحريك الموارد والتصورات[21] من أجل مقاومة هذا الاضطراب، فإن أجزاء المجتمع الواحد تعيش تجربة الاضطراب المحيطي بطرق مختلفة.

في تونس، ومنذ أن أعلن إلياس الفخفاخ الحجر الصحي الشامل، تعطلت أدفاق توزيع الطاقة على توليد الموارد. في هذا الحالة، وباعتبار أن أي نسق مركب يطور فضاءات تخزين موارد داخله للرجوع إليها في حالة تعطل عملية التفاعل مع المحيط لسبب أو لآخر، فإن اشتغال الأدفاق وتوزيع الطاقة والمؤسسات المؤطرة لها يختلف نوعا ما. حيث يمثل تحول النسق الاجتماعي من الاعتماد على الموارد المُولّدة يوميا إلى الموارد المخزنة سببا إضافيا لرفع الضغط داخله بين الأنساق الفرعية بسبب الفروقات في مدى ترابطها واندماجها في هذه الأدفاق مؤسساتها، وما يعنيه ذلك من اختلاف الإستراتيجية التي يستعملها كل منها في مقاومة هذا الاضطراب المحيطي.

ونظرا لتكوّن السلوك البشري من مستويات مُتداخلة من التعقيد التطوري، النفسي والسوسيو-ثقافي، يُمكن أن تدفع اللحظة الوبائية إلى تغير نمط ترابط مستويات السلوك جديا، كأن يصبح مثلا الدافع التطوّري أكثر وضوحا وتحديدا في توجيه السلوك العام للأفراد مُقابل تراجع النمط السلوكي السيوسيو-ثقافي اليومي، أي مُقابل قدرة المعايير الاجتماعية المُؤسسة على توجيه التفاعل اليومي للمجموعة. وقد شاهدنا بالفعل ظهورا متسارعا لهذه النزعات السلوكية خصوصا مع بداية الازمة. حيث تُعتبر النزعات السلوكية للتخزين المُفرط للموارد مثلا، أو ازدياد ظواهر الاحتكار، وتراجع دائرة الاعتبار الأخلاقي للأكثر قربا دمويا واجتماعيا، والنقص في منسوب الثقة

[20] تقوم مؤسسات المجتمع الخطابية والمعيارية بتحويل الحد الاجرائي للنسق الاجتماعي الى بنية ادراكية وتصنيفية لدى الافراد المكونة لها من خلال عملية ذهنية معقدة يستبطن من خلالها الافراد تصورا ما ويتحول الى مرجع سلوكي وذهني لهم لمعالجة معلومات العالم والفعل فيه.
. تعمل هذه البنية الادراكية على ترتيب المحيط هرميا، من اجل بناء نسق من التفاضلات الي تسمح بتوفير تلقائية في الفعل والادراك. كل ثقافة، او تصور ما يحمل الى ذهن افراده مجموعة من التفاضلات.

[21] التصورات، التمثلات، المعرفة والسلوك تعتبر مواردا كذلك. أن يعرف الانسان كيفية التصرف في وضعية ما، يعتبر موردا يمكن تحصيله، مضاعفته او فقدانه بالنسيان. يمكن اذا الحديث عن الموارد العرفانية cognitive resources .

العامة، التي تمثل القيمة الأهم في تحديد مدى أفق التعاون الجماعي، بعض أهم الظواهر التي تطرح تحديا حيويا خلال سياقات مُماثلة.

ولكن، تمس هذا التغيرات الحيوية الأنساق الاجتماعية الثانوية بدرجات مختلفة. فالمنتمون للطبقات الوسطى مثلا، لا يشعرون بنفس الضغط السلوكي للطبقات الشعبية والهامشية، باعتبار أن المحيط الذي يقضون فيه هذه الاضطرابات يتمتع بحصة أكبر من الموارد اللازمة للتعامل مع أحداث كهذه. فالمساحة، تركيبة العائلة، المدّخرات المالية، الاندماج بمسالك التوزيع تسمح مثلا للطبقات الوسطى بمقاومة أكثر فاعلية للاضطراب المحيطي الذي أحدثته الجائحة التاجية أولا، ثم السياسية التي تبنتها الدولة، والتي كانت أكثر تأثيرا على الفئات الشعبية والهامشية بالدرجة الأولى.

تتميز المحيطات الثانوية التي تشكل فضاء الفئات الهامشية باندماج ضعيف بأدفاق توزيع الطاقة عامة. حيث تبين المعطيات التي وفرها عزام محمود[22] أن الفروقات في توزيع الثروة تبين الهوة الكبيرة بين مختلف فئات المجتمع التونسي. ولكن لا يتعلق الأمر هنا فقط بعيش واختبار فترة محنة اجتماعية، بل تمثل الجائح التاجية عاملا مضاعفا للإقصاء النسقي والبنيوي للفئات الشعبية والهامشية أكثر من غيرها. إذا يفترض نقص الموارد التي بحوزتها أو غياب استراتيجيات الادخار، أن تعمل هذه الفئات على التوليد اليومي لمواردها الحيوية؛ أي أن تعمل يوميا للحفاظ على وجودها. ولكن مع الحجر الصحي والتباعد الاجتماعي المفروض، وجدت هذه الفئات نفسها في مواجهة مع المعايير الإجرائية المستحدثة التي لا تأخذ بعين الاعتبار الطبيعة المحيطية التي ينشط بها النسق الفرعي الفئات الشعبي. حيث، لا يمتلك عامة المنتمين إلى هذا النسق أيّة ميولات لادخار بسبب عجزهم عن ذلك، ولا يحوزون ضرورة نفس المعارف واستراتيجيات النظافة أو التّوقي الصحي المطلوب.

العودة المشهدية للدولة.

تُمثّل اللحظة الوبائية إحدى أكثر الرهانات الجذرية التي يُمكن أن يختبرها مُجتمع ما ويُعايشها. حيث أنّها تمتحن صلابة التنظيم الاجتماعي والمتانة العلائقية التي تجمع أفراده، من خلال اختبار قدرته على التوفير الاستثنائي للأُطرّ السردية والمؤسساتية المُمكنة واللازمة لاستيعاب مُختلف الأنماط السلوكية والرهانات الاجتماعية التي تنشأ في أوضاع مماثلة. وقد أدركت الدول التي اختبرت الجائحة ذلك فجأة. حيث لاحظنا خلال هذه الفترة العودة المشهدية للدولة إلى مجال التصرف العام في الموارد وصياغة تكتيكات مواجهة الجائحة التاجية.

[22] محجوب (عزام) .جائحة كوفيد 19 في تونس؛ التفاوت والهشاشة في مواجهة الفقر والبطالة. المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية.2020.

ولكن رغم أن هذه الدول تتخذ سردية الخطر، والحاجة الوظيفية لمركزة السلطة، كمُنطلق استثنائي لإضفاء مشروعية جديدة على اشتغالها، إلا أنها تواصل التسليم بنفس المُقدمات الخطابية للسرديات المُهيمنة. حيث ينزع النسق تلقائيا إلى تفضيل أجزاء داخله على حساب أخرى، ما يعني أن بعض الأجزاء التي تُشكله، تملك الأفضلية في الحصول على الموارد التي ينتجها النسق في كليته، على حساب أجزاء أخرى. ولكن، وعلى عكس مُكونات وأجزاء الأنساق الأخرى، كالبيولوجية، أو الفزيائية، فإن بالإنسان، كونه أحد أهم مكونات النسق الاجتماعي، لا يتماهى لا أنطولوجيا[23] ولا قيميا مع الوظيفة التي يشغلها داخل النسق ولا مع الجزء الذي ينتمي إليه باعتبار أنه يحوز على القدرة الذهنية التي تمنحه قدرة تخيّل نفسه في أجزاء أخرى من النسق، وتمكنه بالتالي من الانفتاح على العالم وإمكانيته. لذلك، فإن جميع أجزاء المُجتمع، وعلى الرغم من اختلاف درجة الانخراط في عملية المُحافظة على النسق العام للمُجتمع المؤطر بسردية مُهيمنة، تتصارع وتتدافع داخل سرديات ثانوية لغاية حصولها على أكثر موارد وتعديل أدفاق توزيعها لصالحها، من خلال مُحاولة التموضع داخل مُؤسسات المجتمع وتوجيهها، وعلى رأسها مُؤسسات الدولة، باعتبارها المُهيمن الإجرائي على أدفاق الموارد.

لهذا تكون عادة السياقات المُماثلة حدثا[24]سياسيا، باعتبار أنّها، وبدرجات مُختلفة، تضع مُؤسسات المُجتمع، أي تلك الفضاءات الرمزية والمعيارية التي تُشكل وتعيد إنتاج مُعظم التصوّرات المشروعة والمُهيمنة، على رأسها أجهزة الدولة، في مُواجهة مع النوازع الذهنية والسلوكية، التي تُميز الطبائع[25] البشرية لأغلب الفئات المُتضررة داخل المُجتمع. فحتى مع عدم المساس بالإطار العام لمشروعية السرديات الرسمية والمُهيمنة، فإن شرائح مُختلفة من المُجتمع تظهر سلوكيات لا تخضع للمُتطلبات المعيارية التي تريدها السلطة، وتدعوهم إلى الالتزام بها، بكل تلقائية.

الجائحة كاضطراب للمخيال الجمعي؛ تعطل جزئي لطقوس الدفن.

يُعرف كاستورياديس (Castoriadis) المجتمع كمخيلة جمعية مُؤسسة[26]. تُؤطر هذه الأخيرة تقريبا كل السلوكيات البشرية المعيارية، من أبسط التفاعلات اليومية إلى هيبة طقوس الدفن والتعامل مع الموت. تنزع هذه المُتخيلات المُشتركة للثبات لأنها تحد فوضى العالم وتؤطرها في نظام (order) يسمح للأفراد بالتكهن بسلوك محيطهم، وتحيد أخطاره الروتينية، الفعلية والمتخيلة.

[23] أنطولوجيا بمعنى أن كيان الانسان مفتوح على أكثر مما تمنحه ايه وظيفته داخل النسق المُجتمعي.

[24] يقصد آلان بادیو بالحدث تلك الوضعية الاستثنائية التي تحمل إمكان إدخال تغير نوعي على مجرى الحياة.

[25] يختلف مفهوم الطبع البشري عن الطبيعة البشرية، باعتبار أن الأول يخص النزعات العام التي تشكل أسس السلوك البشري؛ كالقدرات الذهنية الأولية (اللغة والمُخيلة، التماهي مع المُماثل) وكل ما يشكل بنيته العرفانية"cognitive structure " والنفسية، التي تتشكل وتتحقق وفق مُمكنات متعددة لكن محدودة، في سياق ايكو-اجتماعي وثقافي ما. في المقابل فإنّ مفهوم الطبيعة البشرية هو تصور ميتافيزيقي وأيديولوجي يفترض جوهرا ثابتا ومُحددا ما قبليا للإنسان، كأن يكون شريرا بطبعه، خيرا أو أنانيا الخ.

[26] Castoriadis (Cornelius),(1998). The Imaginary Institution of Society. The MIT Press , 1998. P16.

ولكن، في المقابل، تُعد الجوائح أحد أهم الأسباب المُحيطية التي يُمكن أن تُحدث تغيرا ما على هذه المتخيلات[27]. يمكن الاستدلال على هذا أساسا بأحداث رفض دفن بعض الموتى بفيروس الكورونا في باجة وفي بنزرت وبعض المناطقة الأخرى، ما تطلب تدخل مفتي الجمهورية التونسي للتقليل من هذه المقاومة بالرجوع إلى المخيال الديني.

عادة ما تكون الطقوس المرتبطة بالموت مترسخة ومتجذرة بقوة فالمخيال الجمعي لمجموعة ثقافية ما، نظرا لأهمية هذا الحدث وارتباطه بأحد أهم الإشكالات الإنسانية. وقد بين فيكتور تورنر (Victor Turner) بالفعل أن الدقة والصرامة الطقسية التي تحيط بالموت تأتي من الشعور الإنساني عامة بضرورة تحييد الموت وضبط التعامل معه لرسم حد بينه وبين الحياة[28]. تكون على ذلك طقوس الدفن كالغسل وقراءة القرآن الضوابط والحدود التي تسمح بمرور الجثة من عالم الحياة إلى عالم الموت مع المحافظة على العتبة الفاصلة بينهما. ولكن، مع موت بالفيروس، ومع ما يعنيه هذا بالنسبة للأفراد من خطر العدوى، فإن الطقوس التقليدية لتحييد جثة المتوفى صارت تبدو غير ناجعة. تعود هذه الفكرة أساسا لما تسميه ماري دوغلاس(Mary Dougla) بثنائية الطاهر والنجس[29]. إذ أصبحت الطقوس التقليدية للموت، والتي تهدف إلى تطهير الجثة حتى تعبر عتبة الموت، غير قادرة على نزع النجاسة منه. في هذه الحال، ونظرا للفزع الذي يمكن أن يسببه هذا الإشكال، فإن رفض دفن بعض الموتى يعود إلى الاضطراب المعياري التي يحيّد خطر عملية الدفن وما يعنيه ذلك من إمكان عبور الموت عتبة الحياة في اتجاه غير مرغوب فيه. فرغم إعلان وزارة الصحة أن الفيروس يموت مباشرة بعد رمي التراب على جثة المتوفى بالفيروس، إلا أن الإشكال في هذه الحال ليس إشكالا تجريبيا يُمكن حله بتجربة علمية. يمكن رصد أنماط مشابهة من هذه المخيلة، حين رفض أطباء وممرضون استقبال حالات من المصابين في عدة أماكن كمدنين والمهدية، فرغم علم العاملين بهذا المجال أن بعض البروتوكولات الفعلية قادرة على عزل الفيروس، إلا أن الخوف الكبير من الاقتراب من المصابين بهذا الفيروس يحيل مباشرة على ثنائية النجاسة والطهارة. فالنجاسة بمعناها هنا تحيل على كل قوى لا يمكن الهيمنة عليها وتحييدها، فهي قادرة على الإتيان بالشر؛ المرض أو الموت.

[27] انظر أعمال فوكو حين يبين كيف أن طاعون القرن 16 مثّل نقلة نوعية في اشتغال المخيال الأوروبي وتطور اشكال جديد من معيار التصرف في الجسد وتأطيره مثلا.

[28] Turner. (Victor). The Ritual Process. Routledge (1996). P20.

[29] Douglas. (Mary). Purity and Danger. Routledge (2002).P 15.

خـــــــــاتمة

في سياق عالمي مطبوع بخطر الجوائح، نظرا للتنظيم الاقتصادي العالمي الحالي ونتائجه البيئية، يعيش جزء كبير من سكان المجتمع البشري على هامش العالم، أي يُمنعون من الوصول إلى الموارد التي تتيحها التجربة البشرية اليوم. في تونس وكغيرها من البلدان، تختلف سبل المقاومة التي يستطيع المنتمون إلى مختلف الفئات الاجتماعية تحريكها من أجل مواجهة حدث كالجائحة التاجية. فبدْءًا من موارد الوقت، المال والمعارف اللازمة والمطلوبة لحماية الذات من خطر كهذا، يُلاحظ توزعها المتفاوت داخل النسق المجتمعي الواحد وأجزائه، ما يعطي ويوفر سياقات مختلفة لتشكيل أنماط سلوكية وتصورات ذهنية متباينة. لعبت الدولة التونسية، من خلال تكتيكاتها في مواجهة الجائحة التاجية دور المعيق الإجرائي الذي صعّب حياة جزء كبير من الهامش التونسي، من خلال وضع قيود على الحركة والتنقل لفئات اجتماعية كبيرة. ما ساهم في مضاعفة إقصائهم ومضاعفة الضغط على مُعاشهم.

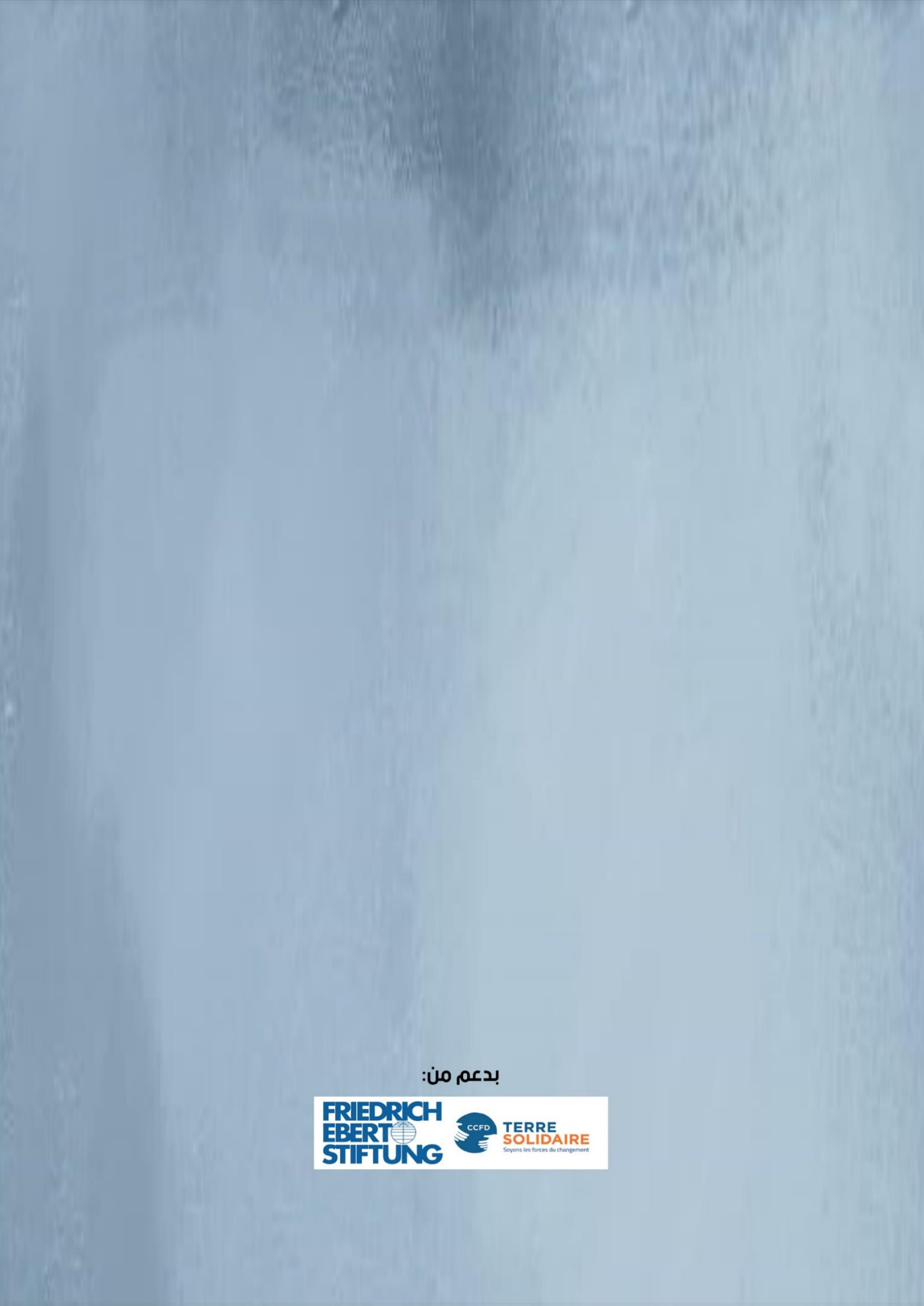

بدعم من:

FRIEDRICH EBERT STIFTUNG

CCFD TERRE SOLIDAIRE
Soyons les forces du changement